العنوان:	الجغرافيون والرحالة العرب وما كتبوه عن الساحل الإفريقي الشرقي في العصورالوسطى
المصدر:	بحوث المؤتمر الجغرافي الاسلامي الأول - السعودية
المؤلف الرئيسي:	زكي، عبدالرحمن
المجلد/العدد:	مج 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1984
مكان انعقاد المؤتمر:	الرياض
رقم المؤتمر:	1
الهيئة المسؤولة:	كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الصفحات:	358 - 372
رقم MD:	123189
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, IslamicInfo
مواضيع:	شبه الجزيرة العربية ، الجغرافيون العرب ، الرحالة العرب ، السواحل ، إفريقيا ، العصور الوسطى، العصر الأموي ، المسعودي ، علي بن حسين بن علي ، البيروني ، أبو الريحان ، الإدريسي ، محمد بن عبداالله ، ت 564هـ، الحموي ، شهاب الدين ياقون ، ابن بطوطة ، محمد بن عبداالله ، ت 777هـ ، الوزان ، الحسن بن محمد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/123189

الجغرافيون والرحالة العرب وماكتبوه عن الساحل الإفريقى الشرقى فى العصور الوسطى

دكتور / عبدالرحمن زكى

العربية والإسلام :

العلاقة بين شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقية قديمة ، وقامت فى بادىء الأمر على تبادل التجارة بينهما . وفى أيام فجر الإسلام قدم المسلمون إلى شرقى أفريقية لما اشتد إيذاء قبيلة قريش للرسول فى مكة ، واعتداؤها على المسلمين فاضطرت جماعة منهم إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة والاستقرار فيها بعدما لقوه من حسن استقبال النجاشى ، وامتناعه عن ردهم إلى قريش . ومع ذلك فإن المسلمين لم يستقروا فى بلاد الحبشة إلا بعد مرور زمن طويل .

وعندما نشب الخلاف بين العرب حول منصب الخلافة ، لاسيا عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، انقسم المسلمون إلى شيع أثناء خلافة على بن أبى طالب ، ونشب الصراع بين الفئات المختلفة ، كل منها تنتصر لمبدئها أو مذهبها .

كان النضال مريرا ألجأ بعض المتشيعين إلى الهجرة من مواطنهم إلى شرق أفريقيا ، وكان المهاجرون من العرب والفرس على السواء وصلوا إلى الساحل الإفريقى الشرقى وشيدوا محلات صغيرة وأصبحوا إلى حد ما بعيدين عن انتقام أعدائهم . وكان هؤلاء يعرفون ثروة الموطن الجديد ، لاسيا فى تجارة العاج والذهب والرقيق والجلود .

وتتابعت الأحداث التى وصلت إلينا بعض أنبائها وأحوال نشاطها ، واستطاع العلماء عن طريق القصص المحلية ومن آثار المدن القديمة المتناثرة على الشاطىء الشرقى والجزر الصغيرة القريبة ـ الاهتداء بمعالم الحضارة العربية أو الهندية أو الفارسية التى انتقلت هناك . وقد كان لما دونه الجغرافيون والرحالة المسلمون فيما بعد أهمية كبرى فى معرفة أحوال المجتمع العربى فى شرق أفريقيا أثناء العصور الوسطى .

وقبل أن نتكلم عن جهود هؤلاء الجغرافيين المسلمين سنتحدث عن أهم تلك الهجرات الآسيوية العربية التى تدفقت تدريجيا ثم استوطنت الساحل البرى .

١ ـ هجرة سليمان وسعيد (بين عامى ٦٩٦ و ٧٠٤ م)

اهتم الخلفاء الأمويون بتجارة الشرق عبر البحر الأحمر والخليج الفارسى فأقاموا محطات

تجارية على الساحل الشرقى لأفريقيا لتأمين هذه التجارة . ويشهد على ذلك ما قام به الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان من إرسال قوات فى سنة ٧٥ هـ/٦٩٥ م إلى الساحل المذكور حيث اتخذت القوات قاعدة لها فى جزيرة لامو الواقعة فى المياه الساحلية ما بين الصومال وكينيا (الحديثة) .

ونتكلم الآن على هجرة سليمان وسعيد فنقول إنه سبقتها هجرة لم تصلنا أنباء مفصلة عنها ، وكانت هذة هى الهجرة الثانية وتعتبر أول استيطان عربى وصلنا عنه بعض المعلومات فى أوائل القرن الثامن فى أثناء حكم الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥م) ، فقد هب شعب عمان وموطنه الأصلى عند الشاطىء الغربى للخليج العربى الفارسى تحت زعامة زعيمين هما سليمان وسعيد بثورة ضد الخليفة الأموى وقد فاز الثائرون فى بداية الأمر ثم تغلبت عليهم قوات الحجاج فى عمان (٦٩٥م) واضطر الزعيمان إلى الفرار للخلاص بحياة رجالهم تاركين وطنهم وهاموا فى جموع من أسرهم وقبائلهم مولين وجوههم شطر الساحل الإفريقى ولا يعلم تماما أين نزلوا على البحر ، ويحتمل أن يكونوا نزلوا فى باتا (Pata) فى أرخبيل لامو .

٢ ـ هجرة اليزيديـن (قرابة ٧٥٠م)

وفرت الجماعة الثانية من مهاجرى العرب إثر نشوب صراع بين الشيعة وكان ذلك بداية القرن الثامن عندما انشقت صفوف الشيعة إلى طائفتين متخاصمتين . وقد كان على رأس ، الطائفة الأولى زيد أكبر أحفاد الإمام على زوج بنت الرسول وأطلق على هذه الجماعة أهل زيد . وقد هزم رجال الخليفة تلك الجماعة حوالى ٧٤٠/٧٣٩م واضطر أتباع زيد إلى الفرار ، وجاء بعضهم إلى ساحل شرق أفريقيا ، واستقروا حينئذ عند ساحل بنادر (الصومال الشرقى) بالقرب من موقع مقديشو عند شنجايا .

٣ ـ هجرة الإخوة السبعة من الأحساء (بعد ٩٠٣/٩٠٤) :

وفى خلال المائتى سنة تمكن أتباع زيد من السيطرة على ساحل بنادر حتى وفد إليهم طوائف من ولاية الأحساء (شرق الجزيرة العربية) ، وكان على رأسهم سبعة إخوة جاءوا فى ثلاث سفن ونزلوا عند ساحل بنادر حيث شيدوا مدينتى مقديشو وبراوة ، ورفض أتباع زيد الاعتراف بسيادة هؤلاء ، وفضلوا الانسحاب إلى قلب البلاد حيث اختلطوا بالأهالى .

٤ ـ هجرة حسن بن على وأبنائه الستة :

قدم حسن بن على إلى الساحل الإفريقى يصحبه أبناؤه وعدد كبير من اتباعه ، ويقال : إن حسنا ابن سلطان شيراز فى فارس أوإنه كان السلطان نفسه(ولاتعرف الأسباب الحقيقية التى أدت إلى مغادرته شيراز فى عام **٩٧٥** م) وصلوا فى سبع سفن ، ونزلوا فى أماكن شتى على الشاطىء الشرقى ، واحدة منها فى منبسة ، والثانية فى بمبا ، والثالثة فى كلوة ، وهى التى كان عليها حسن ورابعة فى جوهانه[١].

وفى أثر وصول تلك الجماعات بدأ الأهالى من الإفريقيين الأصليين يدخلون تدريجيا فى الإسلام ، والمعروف أن هؤلاء يتبعون الآن المذهب الشافعى (سنيون) ، ولما كان حسن بن على ومن صحبه شيعيين من ذوى السلطة والنفوذ ، فإنه لايعرف متى تحول غالبية السكان من شيعيين إلى سنيين[٢]، واستوطن العرب إقليم سفالة جنوبى موزمبيق بين عامى **٩١٠** و **١٢٢٠** م . كما انتشر هؤلاء فى جزيرة مدغشقر لاسيا فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وتكون من الإفريقيين والملايو سكان مدغشقر الجنس المالجاشى .

وعلى مر الأيام أوغل الشاطىء الإفريقى فى أنحاء المناطق الإفريقية المحاذية للساحل وشقوا سبيلهم شمالا إلى الحبشة ، وإلى أوغندة وتنجانيقا وإلى إقليم نياسا ، بل وربما أيضا إلى أقصى القارة جنوباً ومن المدن التى بناها العرب على الساحل الشرقى واتخذوا منها مرافىء للسفن : سفالة وكلوة وزنجبار ومنبسة ومالندة[٣] .

٥ ـ غزوة آل النبهانى (قرابة **١٢٠٣**م) :

وفى فجر القرن الثالث عشر قام ابن عثمان ـ سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى على رأس أتباعه الكثيرين وقصدوا جزيرة باتا ، ثم تزوج من ابنة زعيم سواحلى اسمه إسحق حاكم باتا ، ومن ثم آلت إليه السلطنة ، فأسس الأسرة النبهانية التى تولت حكم شطر كبير من الساحل الإفريقى حتى القرن التاسع عشر .

تلك هى مقدمة كان لابد منها لنتعرف على مواطن التعريب الأولى على الساحل الإفريقى حينما عرفها الجغرافيون العرب ووضعوها فى مؤلفاتهم وكما شاهدها رحالتهم .

الجغرافيون والرحالة العرب وكتاباتهم عن ساحل شرق أفريقيا

القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى

أشار عبد الله بن خرداذبة فى كتابه « المسالك والممالك » فى عام ٨٨٦م إلى بلاد الزنج ، فقد ذكر عدن وأشاد بأهميتها بين ثغور المحيط الهندى وبتجارتها وبحاصلات الصين والهند والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والسويس(٤) توفى حوالى عام ٩١٣ م . وقد استعان بمؤلفاته كثير من الجغرافيين ـ كابن الفقيه وابن حوقل .

القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى

• وفى أوائل القرن العاشر يقابلنا كتاب ابن الفقيه « البلدان » الذى لم يصلنا منه سوى أجزاء قليلة لفقد معظمه ، وقد أشار ابن الفقيه إلى الرياح الموسمية التى تسابق الملاحين فى المحيط الهندى على الوصول إلى شاطىء الزنج فى خلال مقاومتهم العواصف والأمواج العاتية ، كما أنه أمدنا ببعض عادات الزنج وتقاليدهم .

ويعتبر أبو زيد السيرافى (٨٧٧ ـ ٩١٥م) أول من أمدنا بمعلومات متصلة بساحل شرق أفريقيا(٥) .

• كما يعتبر كتاب أبى إسحق إبراهيم المشهور بالإصطخرى الجغرافى (ح٩٥١) صاحب « المسالك والممالك » أول مؤلفات تقويم للبلدان العربية التى احتوت على خرائط مرسومة وضحت على إحداها المدن والثغور التى تقع فى بلاد الزنج . وقد ذكر عن تلك البلاد أنها واسعة وتمتد شمالا إلى تخوم الحبشة وتقابل اليمن وفارس والهند . ويبدو أن الإصطخرى أفاد كثيراً مما كتبه أبو زيد البلخى فى كتابه « صور الأقاليم » .

• ويمدنا الجغرافى العربى أبو القاسم أحمد المعروف بابن حوقل (توفى ح ٩٧٧م) فى كتابه « المسالك والممالك » بشىء من رحلتيه بعد أن جاب العالم الإسلامى من المشرق إلى المغرب ما يقرب من ثلاثين سنة وكان قد بدأها عام٩٤٣ م وقد صحح كثيرا من المعلومات التى

أوردها الإصطخرى فى كتابه وقد نشر كتابه ضمن مطبوعات المكتبة الجغرافية بليدن (١٨٧٠ ـ ١٨٩٣) وأعيد طبعه مرات .

على بن الحسين بن على المسعودى :

ويعتبر من أشهر جغرافيى العرب . ولد فى بغداد وتوفى بالفسطاط حوالى عام (٩٥٧)م وأهم مؤلفاته «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذى يعتبر من المراجع الجغرافية عن أحوال العالم الإسلامى وقد تردد على منطقة ساحل شرقى أفريقيا فى الفترة من عام ٩١٦ إلى ٩٢٦ م كما طوف بأصقاع كثيرة حتى وصل إلى مدغشقر ، ويمكن القول أن المسعودى أضاء الطريق أمام الباحثين فى جغرافية شرق أفريقيا وتاريخها . قال المسعودى عن خطورة بحر الزنج مايلى : « ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم واليمن وأصابنى فيها الأهوال مالا أحصيه كثرة ، فلم أجد أهول من بحر الزنج » ثم قال عن الزنج : « إنهم كانوا مجموعات من الشعوب وليسوا شعبا واحدا . يعيشون فى إقليم يمتد مسافة ٢٥٠٠ ميل على الساحل صوب الجنوب فى المنطقة الممتدة فيما يعرف حاليا بالقرن الإفريقى شمالا إلى موزمبيق جنوبا ..» ويواصل المسعودى حديثه قائلا : وسكنت الزنج فى ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى سفالة وهى أقاصى بلاد الزنج وأقاصى بحر الزنج وبلاد سفالة وأقاصى بلاد واق الواق وهى أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، خصبة حارة واتخذها الزنج دار مملكة وملكوا عليها ملكا سموه « دقليمى » والفيلة فى أرض الزنج فى نهاية الكثرة وحشية كلها ، والزنج لا تستعمل شيئا منها فى حرب ولا فى غيرها ، بل تقتلها ، والزنج يقاتلون على البقر بدلا من الإبل والخيل ، وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولجم .

القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر

ويمدنا العلامة أبو الريحان البيرونى المتوفى سنة ١٠٣٨ بمؤلفات شتى فى الرياضيات والفلك والتاريخ ... والبيرونى أول من حقق صفة بلاد السند وبلاد الهند الشمالية وقد صحب السلطان محمود الغزنوى فى غزواته من سنة ١٠٠٠ إلى سنة ١٠١١ وأصلح ما وجده من الخطأ فى خريطة تلك البلاد وضبط مواقع مدنها . وقال أبو الريحان فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » عن شرق أفريقيا : « إن ساحل القارة الشرقى والجزر الجنوبية منه تسكنها

قبائل متفرقة من الزنج . وأشار أيضا إلى شؤون التجارة التى كانت قائمة بين سفالة فى جنوب الساحل والهند والصين ، لكنه لم يعطنا معلومات مفصلة عن دور العـرب فى تلك التجارة .

القرن السادس الهجرى ـ الثانى عشر الميلادى

الشريف محمد بن عبد الله الإدريسى :

وفيما بين عامى ١١٠٠و١١٦٦ م يقابلنا الشريف الإدريسى (١٠١٩ ـ ١١٦٦م) فى كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه للملك روجر أحـد ملـوك صقلية النورمان المتنورين ، وأهمية كتاب الإدريسى أنه أول المراجع التى تتحدث عن مدن الساحل الأفريقى وجزره ، ومن ذلك كلوة التى كانت لها تجارة هامة مع سفالة ومالندة على الشاطىء ومع ذلك فإن الإدريسى لم يقدم لنا معلومات وافية عن تلك المدن . وإذا عرفنا أن الإدريسى انتهى من كتابه « نزهة المشتاق » عام ١١٥٤ فإن من المهم أن نعرف أيضا أن فى هذه الفترة كانت تجارة العرب متسعة فى المنطقة اتساعا كبيرا وذكر الإدريسى تجارة الحديد وقال : إن الزنوج يمتلكون مناجم الحديد ، ويستخرجونه منها ، ويتاجرون فى الحديد المطاوع منـه ، ويربحون من تجارتهم هذه أرباحا كثيرة وتحدث الإدريسى عن منبسة التى كان يشتغل أهلها فى تجارة الحديد أيضا مما يدل على الصلات التى كانت قائمة بين شعوب الداخل ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم خاصة من الهنود حيث كانوا يصنعون فى بلادهم السيوف الجيدة .

القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى

* وفى أوائل القرن الثالث عشر صنف شهاب الدين ياقوت الحموى « معجم البلدان » ويعتبر هذا المعجم من أهم ما صنفه العرب فى هذا الميدان ، ويقابلنا فيه بعض أسماء مدن شرقى أفريقيا كمقديشو، وقال عنها: إنها مدينة فى أول بلاد الزنج جنوب اليمن فى بحر البربر فى وسط بلادهم ، وهؤلاء البربر غير البربر الذين هم بالمغربهؤلاء سود يشبهون الزنوج جنس متوسط من الحبش والزنوج . وإذا قصدهم التاجر لابد له من أن ينزل على واحد منهـم ويستجير به ، فيقوم بأمره ، ومنها يجلب الصندل والأبنوس والعنبر والعاج ، وقد يكون عندهم

غير ذلك مجلوبا إليهم . ولم يزد ياقوت معلومات جديدة عن المدن الأخرى عما جاء فى كتاب الإدريسى .

* ثم يقابلنا الشيخ زكريا بن محمد القزوينى (توفى١٢٨٣) وله كتاب«آثار البلاد وأخبار العباد» • وله أيضا كتاب « عجائب المخلوقات » جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد ولكن فيه الغث والثمين وتاريخ تأليفه سنة١٢٧٥ وقد طبع الكتابان فى كوتنجن سنة٨٤٩ م ، وقد ذكر القزوينى فى كتابه الأول أن سفالة هى آخر مدينة معروفة فى أرض الزنج ، وفيها مناجم الذهب ويمارس أهلها التجارة (المقايضة) الخفية .

* ويقدم لنا ابن سعيد المغربى الغرناطى (١٢١٣ ـ١٢٨٦) المعاصر للقزوينى كتابه الذى صنفه على نهج الإدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » فقد رحل إلى القاهرة وإلى حلب ودمشق وحج ، وكان نزوله فى ساحل أفريقيا سنة ٦٥٢هـ ومن ثم قدم لنا بعض المعلومات عن مدن الساحل الأفريقى كالندة ومنبسة ومقديشو بترتيبها من الشمال إلى الجنوب .

* ويقابلنا أبو الفداء إسماعيل بن على عماد الدين (١٢٧٣ ـ ١٣٣١) فى كتابه الهام « تقويم البلدان » ونلاحظ أنه نقل كثيرا فيما يتصل بشرق أفريقيا وقد نقل كتابه إلى اللغة الفرنسية فى ثلاثة أجزاء وكان ذلك عام١٨٤٨ م .

القرن الثامن الهجرى ـ القرن الرابع عشر

* وفى خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر نهض الرحالة المغربى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الشهير بابن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧) من طنجة مسقط رأسه فى المغرب وتونس وطرابلس وبرقة ومصر وفلسطين والشام وفارس والعراق وبلاد ما بين النهرين ، ثم عرج نحو الساحل الإفريقى الشرقى من تعز باليمن فقصد مقديشو ، فمنبسة ، فكلوة وأمدنا بمعلومات قيمة عن مجتمع كل مدينة . فذكر عن مقديشو أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوما وهى مدينة متناهية فى الكبر ، وتحدث عن نشاطها الاقتصادى ، وأكد اتصالها بمصر تجاريا وذكر أن سلطانها يتحدث العربية وإن كان يتكلم لغة مقديشو ، وذكر ابن بطوطة التقاليد المتبعة فى جلوس السلطان وما يحيط به من وزراء ووجوه وأحفاد ، كل حسب مرتبته ، وأن الأطفال والأنفار والأبواب كانت تضرب عند جلوس السلطان ، ثم يمضى ابن بطوطة فى

وصف الحياة الاجتماعية فالاقتصادية ومدى ما وصلت إليه هذه السلطنة فى اتساع النفوذ ، وعزٍّ فى التجارة والمال .

وذكر ابن بطوطة عن منبسة ـ أنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة يومين فى البحر . وأشجارها الموز والليمون والأترج ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون ، وهى تشبه الزيتون ولها نوى كنواه إلا أنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وإنما يجلب إليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وإصلاح ومساجد من الخشب محكمة الاتقان .

• وكتب رحالتنا ابن بطوطة عن كلوة ، يقول : إنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج المستحكى السواد ، ولهم شرطات فى وجوههم ، وقد ذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من كلوة ، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميتين شهر ، ومن يوفى يؤتى بالتبر إلى سفالة ، ومدينة كلوا من أحسن المدن واتقنها عمارة وكلها بالخشب والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب ، وكان سلطان كلوا فى أيام دخول ابن بطوطة إلى كلوا ـ أبو المظفر حسن بن سليمان الذى تولى الحكم(١٣١٠ ـ ١٣٣٣ م) أى حوالى أربع وعشرين سنة . وبعد وفاته تولى داود الملك وكان على نقيض أخيه فى كل شىء[٦] .

• ولزين الدين عمر بن المظفر بن الوردى (توفى ١٣٤٨) كتاب « جريدة العجائب وفريدة الغرائب »[٧] وقد أشار فيه إلى ذهب مدينة سفالة التى تجاور أرض الزنج ويقول عنها : إنها أرض واسعة بها جبال فيها مناجم الحديد ، ولكن معادن سفالة أطيب وأصلح وأرطب والهنود يصنعونه فيصير فولاذاً لمعا . ومن عجائب أرض سفالة أن بها التبر الكثير ظاهرا ، وكل تبرة مثقالان وثلاثة وأكثر . ومع ذلك لايتحلون إلا بالنحاس ويفضلونه على الذهب وأرض سفالة متصلة بأرض واق الواق .

• ويقابلنا فى موسوعة الأعشى لابن العباس أحمد القلقشندى المصرى (توفى١٤١٨م) بعض الإشارات عن المناطق الإسلامية فى الحبشة وشرق أفريقيا ، كما أن هناك فى المنهل الصافى لابن تغرى بردى تلميحات قليلة .

وهكذا نرى أنه منذ القرن الخامس عشر تصبح المراجع العربية نادرة جدا ، ثم يتضاءل عددها لشعوب غرب أفريقيا ، ثم تحل مكانها المؤلفات الأفريقية الوطنية والبرتغالية ، ومن أهمها الوثائق التاريخية المعاصرة لغزوهم بلاد السواحل الشرقية والغربية ، ويمتاز هذا العصر بالكشوف الجغرافية التى نهض بها الملاحون البرتغاليون إبان نهضتهم ...

الجغرافيون والرحالة العرب فى غرب أفريقيا

فى القرن التاسع تحدث ابن عبد الحكم (٨٠٣ ـ ٨٧١) صاحب « فتوح مصر والغرب » عن السودان الغربى (غرب أفريقيا) وعن الحملات العربية التى وصلت إلى جنوب الصحراء قال : « وغزا عبيدالله حبيب بن أبى عبيد الفهرى السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم ير مثله وأصاب ما شاء من ذهب . وكان فيما أصاب جارية أو جاريتان من جنس تسميه البربر « أجان » ثم غزا أيضا البحر ثم انصرف .

ولدينا اليعقوبى الجغرافى والمؤرخ (توفى ٨٩٧ م) صاحب البلدان تحدث عن تاريخ ممالك السودان: «الزفاوة وكاكو، ومارندا، وغانا وتداري وغام وساما وكرار وأودغشت». كما أنه أشار إلى مناجم الذهب فى غانا وقوافل العبيد .

وابن حوقل الذى ألف كتابه « المسالك والممالك » حوالى عام ٩٨٨ فى أعقاب رحلته التى قام بها عام ٩٧٧ وتحدث عن بلدة أودغشت على حافة الصحراء فقال : إن لزعماء تلك المدينة صلات بملك غانا أغنى ممالك العالم لما فى أرض بلاده من التبر .

والمسعودى (توفى ٩٥٧) الذى طوف فى أنحاء العالم العربى والهند والأندلس ، ويرجح أنه زار مدغشقر ثم توفى فى مصر ، ونجد فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » إشارات مفيدة عن عدة ممالك فى غرب أفريقيا وشرقيها .

وأشار الإصطخرى (توفى في النصف الأول من القرن ٤ الهجرى) فى كتابه « المسالك والممالك » إلى بلاد السودان عامة (ص ٣٤ ـ ط . القاهرة) .

ولدينا أبو عبيد عبد الله البكرى (١٠٤٠ ـ ١٠٩٤ م) الجغرافى الأندلسى الذى كتب حوالى عام١٠٧٧ م وصفا لأفريقيا ، دون أن تطأها قدمه يعتبر من أهم ما كتب فى تلك

الفترة ، وقدم لنا معلومات دقيقة عن مملكة غانا القديمة ، وهى فى أزهى أيامها وأشار إلى محاولات المرابطين لاختراق الصحراء من أجل الوصول إلبها .

والإدريسى (١١٠٠ ـ ١١٦٤) صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى عنى بتحقيقه ونشره هنرى بيربس ، عنى كثيرا بأحوال غرب أفريقيا ولاسيما غانة ، فقد وصف فى أماكن كثيرة من كتابه ما كان عليه ملوك هذه الدولة فى الثراء ، كما وصف أحوال مالى وتكرور ، أكبر مدنها وأكثرها تجارة ، فكان يسافر إليها أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم .

وياقوت الحموى (١١٧٩ ـ ١٢٢٨ م) الذى جمع خلال رحلاته شتى المعلومات الجيدة عن غانة وتكرور وذكرها فى معجمه المعروف ، وقد ترجم إلى عدة لغات أوروبية ، منها ترجمة وستنفلد التى صدرت فى ليزج (١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ م) .

وذكر زكريا بن محمد القزوينى (توفى ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) فى آثار البلاد (ط. بيروت) السودان وتكرور (ص ٢٦ ـ ٢٧) وغانة (ص ٥٧) بلاد التبر .

وذكر على بن سعيد المغربى (توفى٦٨٥هـ/١٢٨٦ م) فى كتابه « بسط الأرض فى الطول والعرض » (نشره خوان فرنيقط خمبنس ، بتطوان ١٩٥٨ م ،ص ٢٤ ، ٢٨) التكرور وكاتم ومدنها .

كما ذكر أبو الفداء (توفى ٧٣٢ ـ ١٣٣١م) فى تقويم البلدان (ط ـ باريس ص١٥٣،٢) بلاد التكرور ، وقد نقل عن ابن سعيد ما كتبه عن مدينه أودغشت (ص١٣٧) .

وابن أبى زرع (توفى ١٣٢٦) صاحب « الأنيس المطرب بروضة القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وقد حققه المستشرق تورنبرج عام ١٨٣٩ . وترجمه إلى الفرنسية Beumier بعنوان « روضة القرطاس » عام ١٨٦٠ م .

وفى القرن الرابع عشر يقابلنا أحمد بن فضل الله العمرى (١٣٠١ ـ ١٣٩٨) القاهرى فى كتابه «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» الذى ألفه فيما بين١٣٤٢ـ١٣٤٦. وهو لايزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية (رقم ٢٥٦٨) ويقع فى ٢٠ جزءا وقد حقق المرحوم أحمد زكى باشا الجزء الأول من هذا المخطوط ونشره عام ١٣٢٤ ، وكثيرا ما يقتبس القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ويأخذ منه فقرات كاملة .

وتقى الدين أحمد المقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) صاحب الخطط المعروفة له كتاب بعنوان « الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشره لأول مرة الأستاذ جمال الدين الشيال فى عام١٩٥٥ ضمن سلسلة مكتبة المقريزى الصغيرة ذكر فيه منسا موسى أول من حج من ملوك التكرور (مالى) (ص .١ ـ ١١٣) .

ومن أهم المراجع العربية فى القرن الرابع عشر أبو عبدالله محمد بن بطوطة (١٣٠٤ ـ ١٣٧٧) ، صاحب كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وهذا الكتاب عامر بوصف وأحوال دول غرب أفريقيا ، ولاسيما مالى قاعدة الدولة الإسلامية التى زارها ابن بطوطة وأمضى فيها ثمانية أشهر ، وقد شاهد ابن بطوطة نهر النيجر وظنه متصلا بنهر النيل ، كما زار تنبكتو حينما كانت مركزا للحضارة الإسلامية وأخذ يجول فى بلاد السودان الغربى وواحاته حتى وصل تاكدا وهى حينذاك أكبر مدن الطوارق كان ذلك فى أثناء رحلة ابن بطوطة الثالثة التى خصها بالسودان الغربى حوالى عام ١٣٥٢ م .

وزودنا المؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) فى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (تاريخ البربر والأسرات الإسلامية ، ٣أجزاء) بحقائق هامة عن السودان الغربى وبمعلومات دقيقة للمرة الأولى عن قبائل الطوارق الذين كانوا فى منطقة اير (أسبن) فى الصحراء الكبرى وأهم مدنها أجادس التى بنيت فى القرن ١٥ الميلادى وجميع سكانها مسلمون .

وأحمد بن عبدالله القلقشندى (توفى ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م) صاحب صبح الأعشى الذى أمدنا بصورة جلية لمجتمع دولة مالى الإسلامية ، وأورد ثبتا لحكامها قبل وبعد اعتناقهم الإسلام ، كما يبين لنا الصلات الوطيدة التى كانت تربط سلطنة برنو بمصر على أيام السلطان الظاهر سيف الدين بن برقوق ، وعثمان برى بن إدريس وسلطان برنو حوالى سنة٧٩٤ هـ ١٣٩١ ـ ٩٢ .

الحسن بن الوزان (ليون الإفريقى) :

ومن أهم المراجع ، ماكتبه الحسن بن محمد الوزان الزياتى (١٤٩٢ ـ ١٥٥٢) اسمه المعروف ليون الإفريقى[١] . ولد فى غرناطة عام ١٤٩٢ وتلقى العلم فى فاس ثم رافق عمه فى

بعثة سياسية أوفدها سلطان مراكش إلى بلاط محمد اكسبا امبراطور سنغاى فى جانح وقام بعد ذلك برحلة طويلة فى غرب أفريقيا ، ثم وقع أسيرا فى قبضة بعض الفرسان المسيحيين فى البحر ، فأخذوه إلى روما وتعهده البابا ليونى فشجعه على الدرس والمطالعة ، عاش سنين طويلة فى روما وزار فى خلالها عدة مدن إيطالية ليعلم اللغة العربية فيها ، ولما مات البابا عاد الحسن بن محمد إلى تونس واتخذها مقاما له حتى توفى عام١٥٥٢ م ولقد أفاد الحسن من رحلته الأولى فأمدته بكثير من المعلومات التى دونها فى كتاب رحلته . وكان رحالتنا قد مربجنى ومالى وتنبكتو وجوجو وجوبر ، وكانو ، وكتسبنا وزنفرا ونقاره ، وبرنو وغيرها . وقد وصف تلك الأماكن وصفا جيدا وتكلم عن أحوال مجتمعاتها بإفاضة والجدير بالذكر أن الحسن خص مصر ، ولاسيا القاهرة بفصل طويل فى كتابه ، وكانت البلاد حينذاك قد خضعت لحكم العثمانيين ، وقد ذكر الرحالة الحسن فى كتابه المؤرخ والشاعر أبا إسحاق إبراهيم المعروف بابن الرقيق القيروانى (توفى حوالى ١٠٢٦ م) صاحب كتاب « تاريخ إفريقيا والمغرب » الذى أفاد منه كثيرا المؤرخ ابن خلدون » .

محمد بن عمر التونسى (توفى ١٨٥٧) :

صاحب كتاب « تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » أهم مصدر للتعريف بأحوال إقليم دارفور الذى قامت فيه سلطنة إسلامية كانت تكون حلقة فى سلسلة الممالك الإسلامية السودانية الواقعة بين الصحراء الكبرى ومصر فى الشمال ، وبين الغابات الاستوائية فى الجنوب ، وتمتد من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا ، وتشمل ممالك سنار وكردفان ودارفور وواداى وباجربى وبرنو أو غانم وممالك الهوسا ثم مالى . أما كتابه الثانى ، فهو « رحلة وادادى ، (جمهورية أفريقيا الاستوائية اليوم) وقام المستشرق بيرون بترجمتها إلى الفرنسية ونشرها فى باريس عام ١٨٥١ ، ولم ينشر النص العربى لهذه الرحلة إلى اليوم ، ولعله فى حوزة أسرة بيرون الذى كان مديرا لمدرسة الطب بالقصر العينى عام ١٨٣٩ م.

وللتونسى مؤلفات أخرى ساعده على كتابتها عمله كمصحح أو ككبير لمراجعى الكتب المترجمة فى مدرسة الطب بالقاهرة ومنها :

الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، صنفه بتكليف من الطبيب كلوت بك ، وهو مازال مخطوطاً بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٤٦٤١ ويوجد منه بدار الكتب المصرية أربع نسخ

مصورة من نسخة باريس ـ وقد طبع منه الجزء الأول فقط.[٧]

وجرى محمد بن عمر التونسى فى أواخر أيامه ، على إلقاء دروس فى الحديث بمسجد السيدة زينب فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٢٧٤هـ(١٨٥٧) بعد أن عمر سبعين سنة .

والجدير بالذكر أن عمر التونسى تلقى علومه الدينية فى الأزهر ، وتزوج من فتاة مصرية أنجب منها ابنه محمداً ، عام١٧٨٩ م ، بدأ رحلته إلى دارفور عام ١٨٠٣ وعاش فيها نحو سبع سنوات ونصف السنة ، ألم خلالها بأحوال البلاد إلماما تاما ، ثم سافر إلى واداى فى غربها حيث قضى فيها ثمانية عشر شهرا ثم استأذن السلطان صابون فى السفر إلى تونس ، فأذن له وبلغها حوالى عام١٨١٣ ثم عاد إلى القاهرة ليلتحق بخدمة الجيش المصرى فى وظيفة واعظ بإحدى فرق المشاة التى حاربت فى المورة سنة١٨٢٧ م ولما عاد منها عام ١٨٣٢ اشتغل بتنقيح كتب الطب المترجمة إلى العربية ، مدرسة الطب التقى بالدكتور بيرون الفرنسى الذى أخذ يتعلم العربية على يد محمد بن عمر التونسى . ولما علم الطبيب برحلة التونسى فى بلاد السودان ودارفور وواداى شجعه على كتابة مذكراته عنها . ففعل .. ويعتبر كتاب « تشحيذ الأذهان » « أهم مراجع واداى ولاسيا بعد ما أصابها من الخراب فى أعقاب إقامة الإمبراطو رابح السودانى . وبداية الاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد .

وقبل أن نختم هذا الثبت الضخم بمنجزات علماء العرب فى حقل الأفريقيات نذكر العمل العلمى الجدير بالثناء الذى نشره على نفقته الأمير يوسف كمال فى خمسة مجلدات ضخمة بين ١٩٢٦ ، ١٩٥١ وقد جمع ما كتبه المسلمون وغيرهم عن البلدان الأفريقية ولاسيا مصر فى اللغتين العربية والفرنسية ، وبالإضافة إلى ما ورد فى مؤلفاتهم من الخرائط النادرة .

نعوم شقير (توفى ١٩٢٢) :

مؤلف تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافية مطبعة المعارف عام ١٩٠٣ ومازال ، هذا الكتاب الجليل يعتبر من أهم المراجع العربية ، ليس فقط عن سودان وادى النيل حتى عام ١٩٠٠ ، بل إنه يحتوى على كثير من المعلومات التاريخية التى تتعلق بدارفور (بالسودان) وسلطنتها منذ أول نشأتها إلى الفتح المصرى الأول (٨٤٨ ـ ١٨٧٥) ثم استعادة فتحها بعد ذلك ، ولذلك يعتبر تتمة لما كتبه التونسى من قبل .

عبد الرحمن زكى

الحـــواشى والتعليقات : -

(١) تذكر بعض المراجع أنهم نزلوا فى موقع مدينة حدابو التى أسسوها شمالى مدينة منبسة .

(٢) بدأ الإمام محمد بن إدريس الشافعى صاحب المذهب المعروف باسمه يدعو لمذهبه حول عام ٨١٣ ويذهب بعض المؤرخين أن ذلك التحول حدث فى أوائل القرن العاشر عن طريق جماعة من مسلمى الأحساء الشــافعيين .

(٣) كان إقليم سفالة يمتد على الساحل الإفريقى فيما يلى مصب نهر زبينرى جنوبا وقد اختلف فى تسمية هذا الاسم فكتبه ابن ماجد الملاح العربى أرض السقال ... دولة الزنج .

وفى المدة التى توسطت وصول مسجد بن على (٩٧٥ م) ومجىء البرتغاليين (١٤٩٧) وهى حوالى خمسمائة سنة نهضت دولة الزنج وقد قامت أثناء المدة المذكورة عدة دويلات من أصل عربى أو فارسى كما نشأت أيـضـا عدة سلطنات على الشاطئ الشرقى ، وكان لدولة كلوة السيادة على معظم الدويلات الساحلية الأخرى وفى خلال تلك المدة ازدهرت تجارة العاج والرقيق والذهب بين الشاطىء وآسيا ، ونمت ثروة المراكز التجارية واتسعت المدن وبلغت مستوى راقياً فى الحضارة .

(٤) ذكر كراتشكوفسكى المستشرق الروسى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى (القسم الأول ص١٤١) أن مؤلفات ابن خرداذبة (وأشهرها كتاب المسالك والممالك لانعرفها إلا من اسمائها فقط ومن المقتطفـات الموجودة لدى المؤلفين المتأخرين أو الإشا رات إليها .

(٥) Ferrand, Gabriel : relation de Vouyage, Tome 1.8.35

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار فى عجائب الأمصار ، مجلدان ، طبعة القاهرة عام ١٩٣٣ .

(٧) طبعة القاهرة عام١٣٢٨هـ/١٩١٠ .

ooo